الفصل الرابع
الحـــــــب
« بين الرؤية الذاتية والرؤية الكونية »

تمهيـــــــد :

فى تصدير الأستاذ عزيز أباظه لكتاب " الشعر العربى فى المهجر يقول ضمن ماقال فى هذا التصدير ، والغريب أنك لاتكاد تلمس خفقات القلب بين ومضات الفكر ولاخلجات العاطفة بين صيحات العقل . فالحب عند شعراء المهجر يكاد يكون ثانوى القيمة فى عناصر الحياة ، لامعنى عميقا فى أغوار الإنسانية وربما كان تعليل ذلك أن التوغل فى شؤون الحياة المادية ، بعد طغيان ، فهجرة حال دون التهاب حاسة الشعراء بمعانى الحب وانصهار عواطفهم فى حرارة الوجد وانشغالهم بذلك الجانب الإنسانى حتى أن إلياس فرحات يروى لمسة وجدانية عامة فيقول:

إذا مالغـــات الشفـــاه اختلفـــن ... فمـــا للقلـــوب ســـوى واحـــده
خفـــــوق يخـــــر لديـــــه البيـــان ... وتعنـــــو المـــعانى لـــه ساجده (١)

ويدافع الأستاذ : جورج صيدح " ويرد على هذا الاتهام : فيقول : الحب هو المادة فى الأدب المهجرى ، حب لجميع مجالى الجمال . لا لجمال المرأة فحسب حب عميق فى خلايا أرواحهم . يتغذى بالقيم المعنوية . لابوليمة الشهوات حب إنسانى . لايقتصر على حب الأم والأب والصـــديق والدار والأهل والوطن بل يبدأ بهذه وينتهى بحب الكون بأجمعه والبشرية بأسرها . وغزلهم . يتغلغل إلى مطاوى النفس بعد أن يمر بظواهر الأشياء . ويصدف عن جسم الحبيبة ليصور ما بخاطرها من ميول وما لنظرتها من معان .

ولعل فى رد الأستاذ جورج صيدح مايفتح أمامنا مفهوم الحب عند المهجريين حيث يمثل الطاقة التى تشع بإلهامهم فى كل مجالات الحياه والوجود .

---

(١) أنظر مقدمة : الشعر العربى فى المهجر لمحمد عبد الغنى حسن ص ١٧ .

والحب عندهم لايتقوقع داخل مفهومه المحدود . حب المرأة فقط " الحب الخاص " وإنما يتعدى ذلك النطاق إلى دائرة العام الرحيب حيث يلتحم بالوجود التحاما كاملا ، وبقضايا الإنسان ووجدانه .. والطبيعة وسحرها الخلاب حيث يمتزج الإحساس الصادق بأنفاس الطبيعة الحارة المتدفقة فالحب عندهم يتخذ اتجاهين :

أ - الحب العام :

وهو الحب الذى يشمل الإنسانية كلها . ويبارك التقدم البشرى - ويأسى لما يصيب الإنسان من خير وشر ويسعى جاهدا إلى الخير والحق والجمال .

ب - الحب الخاص :

وهو الحب الذى يخص المرأة ويبعث الرجل على التغنى بمحاسنها وتذوق ألوان السعادة فى وصالها وألوان الأسى فى الحرمان منها .

وهناك أنواع أخرى من الحب . لا نستطيع أن نتجاهلها . فبصماتها غائرة فى وجدان الأدب المهجرى مثل .

حب الوطن ، حب الطبيعة ، حب الكون .

والحب العام سأتعرض لدراسته بالتفصيل لأنه يتصل بالتأمل فى أكثر من جهة وباقى الاتجاهات الأخرى سأوضح منها فى إيجاز مايمت إلى العمق الفكرى ومايدخل فى دائرة الحب المهجرى الذى يتسع ليشمل الوجود كله .

أ - الحب العام :

بعد تأمل أشعار المهجريين وكتاباتهم وبخاصة مايتصل منها بالرؤية الشمولية للحب حيث لاينحصر فى التعبير عن الرغبة الحسية فقط أو يكتفى بالنواح والبكاء على الأطلال ، أو يصف الشوق المضنى إلى الحبيبة التى هجرت وصدت .

وإنما يتعدى كل ذلك ليعلن عن رؤية هؤلاء الأدباء للحياة من خلال الحب الذى طبعوا به حياتهم ، وجعلوه " أكسير " تصرفاتهم .

بعد هذا التأمل وجدت أن الحب عندهم يدول حول المعانى الآتية :

الفناء فى المحبوب والاتحاد به مما يضفى على الحب عندهم الطابع الصوفى حيث لايعبرون عنه فى لغة مباشرة ولكن يلجأون إلى الرمز كما عبر نعيمه وجبران .. واتخذوا الحب وسيلة لكشف النفس وطريقا إلى الله سبحانه وتعالى .

فجبران يرى أن الحب غنوة حلوة تغاديه وتراوحه فى كل زمان مكان . وتريه سحر الطبيعة وجمال السكينة وعمق الأسرار . وهو بذلك يطبع الحب بالطابع الصوفى الذى يتحد بالمحبوب ويفنى فيه . يقول " سأتخذ الحب سميرا وأسمعه منشدا وأشربه خمرا " وألبسه ثوبا ، عند الفجر سينبهنى الحب من رقادى ويسير أمامى إلى البرية البعيدة ، وعند الظهيرة سيقودنى إلى ظل الأشجار فأربض مع العصافير المحتمية من حرارة الشمس ، وفى المساء سيوقفنى أمام الغروب ويسمعنى نغمة وداع الطبيعة للنور ويرينى أشباح السكينة سابحة فى الفضاء ، وفى الليل سيعانقنى فأنام حالما بالعوالم العلوية حيث تقطن أرواح العشاق والشعراء . (١)

وقد أراد جبران أن يعبر عن مصاحبة الحب له فى جميع أطوار حياته فلجأ إلى الرمز الزمانى الذى يجعل من دورة اليوم رمزا لكل دورات الحياة .

فرمز للطفولة بالفجر ، ورمز للشبيبة بالظهر ، ورمز للشيخوخة ومشيب الأحلام فى عينيه بالغروب ، ورمز للفناء بالليل . وتلك الرموز وإن كانت تقليدية لكنها أعطت لتعبيره نفسا شعريا قريبا من لغة الأحلام والرؤى .

وهو فى قصته الأجنحة المتكسرة يعبر عن فلسفته فى الجمال وسر التجاذب الروحى بين الرجل والمرأة فيقول : عرفت أن للجمال لغة سماوية تترفع عن الأصوات والمقاطع التى تحدثها الشفاه والألسنة ، لغة خالدة تضم إليها جميع أنغام البشر وتجعلها شعورا صامتا مثلما تجتذب البحيرة الهادئة أغانى السواقى إلى أعماقها تجعلها سكوتا أبديا . الجمال الحقيقى هو أشعة تنبعث من قدس النفس وتنير خارج الجسد مثلما تنبثق الحياة من أعماق النواة وتكسب الزهرة لونا وعطراً " (٢)

وميخائيل نعيمه لايكاد يختلف فى مفهومه للحب العام عن جبران فالحب عنده طريق لوحدانية الوجود يقول " ألا وسعوا أبواب روحكم كيلا يظل أحد خارجا لاتبغضوا أحدا من الناس . إنما الأرض كلها تحيافيكم . وإنما السماوات وأجنادها حية فيكم "

(١) محمد محمد عبد المجيد : فى عالم الرؤيا ص ٥٧ .

(٢) جبران : الأجنحه المتكسرة ص ١٣٠

وللحب عند إيليا أبى ماضى مفهوم يتسامى فى الشفافية حتى يصل إلى درجة التصوف . وبواوينه حافلة بهذا اللون من الحب الذى يمثل تيارا متجددا فى حياة الشاعر يلون الحياة فى وجهه بالخضرة المثمرة فيقبل على الناس ، ويجابه كل الصعاب .

فالحب عنده نور يكشف حقيقة النفس ، ويهدى الإنسان إلى الله : يقول

قـــال قـــوم إن المحـــبة اثـــم ... ويـــح بعـــض النفـــوس ما أغبـــاها
أن نفســـا لـــم يشـــرق الحـــب فيها ... هـــى نفـــس لـــم تـــدر ما معناها
خـوفـونـــى جهنمـــا ولظـــاها ... أى شـــىء جهنـــم ولظـــاهـــا ؟
ليـــس عنـــد الاله نـــار لـــذى حب ... ونـــار الإنســـان لا أخشـــاها
أنـــا بالحـــب قـــد وصلـــت إلـى ... نفسـى وبالحـــب قـــد عرفت اللـــه (١)

وحين يعبر أبوماضى عن الحب " بالإشراق فى النفس . فإننا نلمح قيمتين فى التعبير .

قيمة بلاغية .. تتمثل فى هذه الصوره التى رسمها للحب وكأنه الضوء الذى يأخذ إلى الطريق الصحيح وينقذنا من دياجير الحياة . وقيمة نفسية .. لأن الذى لايحب لايعرف نفسه ولايعرف الله . أليس فى ذلك إعلاء لايستهان به من قدر الحب ؟ .

وقد افتقد .. عزيز أباظة هذه النزعة فى شعر أبى ماضى فقال ...

وإيليا أبو ماضى حين يتحدث عن الحب لا يزجى عاطفة ذاتية وإنما يزجى حقيقة عامة . (٢)

وإذا كان أبو ماضى فى القصيدة السابقة يتحدث عن الحب العام فهو إنما يتخذ الحب قضية شمولية يدافع عنها . وفى ذلك وعى واقتدار كاملين بدور الحب فى حياة الشعوب وأيهما أجدى . هذا الذى يركع تحت أقدام أنثاه ويجردها من ثيابها ويصف مفاتنها ولاينال شيئا فيذبح قلبه بسكين غدرها أو إعراضها . أم ذلك الذى يؤمن بالحب سلما لارتقاء البشرية ، ودافعا لايمان الإنسان بقدراته الخارقة . وكرامته المصونة وعلاقته الاجتماعية السامية .

وذلك لايمنع من أن تكون لأبى ماضى وجدانياته الخاصة ، وخفقاته الحالمة بنبض الحب

---

(١) أبو ماضى الخمائل ص ٢٢

(٢) محمد عبد الغنى حسن : الشعر العربى فى المهجر ص ١٦ .

وحرارة العاطفة . (١)

ويلتقى مفهوم الحب عند « ندره حداد » فى كثير من معانيه بمفهومه عند أبى ماضى فهو " يتفرع إلى روافد صافية أعظمها الحب الإنسانى الذى يربط قلب الشاعر بكل مافى الوجود برباط من المودة الصادقة التى تحب الخير لكل مافى الوجود (٢) فالحب هو القوة الدافعة يقـــول .

الحـــب هـــذا كهـــرباء الـــوجود بـــل هـــو فيـــه القـــوة الدافعه

وربما جهل الشاعر بحقيقة الكهرباء ومفهوم القوة الدافعة وهما مصطلحان علميان أقحمهما فى التعبير الأدبى . وذلك غير ممنوع إذا لم يكن هناك اضطراب وفساد للمعنى لكننا نرى الشاعر يعبر عن الحب بأنه كهرباء الوجود . ومن البديهى أن الكهرباء هى القوة الدافعة أو المحركة .

فلماذا يأتى بلفظه " بل " وهى للإضراب . ويقحم الضمير المنفصل بلا داع – ثم يأتى بالقوة الدافعة ؟ ومعنى هذا أن هناك مغايرة بين الشطرتين .

والقروى يتفق مع الشماليين فى رؤيته الشمولية لمفهوم الحب العام .

فالحب عنده دليل على فضائل النفس وهو يقودها إلى الالتحام بالكون وعناقه يقول من قصيدته " تسبيحة الحب " (٣)

سأجـــرف بعضكـــم بالحـــب جرفـــا وأنســـف غيظكـــم بالحلـــم نسفـــا
وأنهلكـــم رحيـــق الصفـــح صرفـــا وأطفـــىء فيكـــم ماليـــس يُطفـــا

وأشفـــى منكـــم ماليـــس يشفى

إذا فكـــرت فـــى معنـــى الوجـــود وفـــزت بلمـــح أنـــوار الخلـــود
رثيـــت لكـــل منتقـــم حقـــود يعـــذب نفســـه وأنـــا وعـــودى

نـــروح ونغتـــدى شـــدوا وعـــزفا

(١) أنظر فى ديوان تذكار الماضى القصائد الآتية : الرجل والمرأة ص ٤٠ ذكرى وعبرة ص ٧٣ ، مصرع حبيبين ص ٧٦ ، لقاء وفراق ص ١١٢ بنت الفرقة ص ١٢٥ ، وفى ديوان : تبر وتراب : هدية العيد ص ١١٤ ، روحى فداك ص ١٢٨ .
(٢) عيسى الناعورى : ادب المهجر ص ٤١٨ .
(٣) ديوان القروى ص ٧٧٣ جـ ٢

والقصيدة تتخذ هذا الشكل المخمس .. وهى تبلغ خمسا وعشرين خماسية .. تدور كلها حول الحب ونبذ البغضاء . ويحلق الشاعر ويثب فى غير ترتيب لأفكاره وإنما يثب كعصفور من فنن لآخر فى حديقة الحب .

ويلتقط تنظيراته وتشبيهاته من الطبيعة النباتية أو الحية وقد ساعدت موسيقى القصيدة على إعطائها قيمة انفعالية محببة فى اللحظات الشعرية يقول .

غرســـت الحـــب فـــى قلبـــى صغيـرا وأطلـــقت الســـلام بـــه غـديـــرا
أأرجـــع اذ غـــــدا روضانضيـــــرا فأجعلـــــه ببغضكـــــم سعيـــــرا

وأقطـــف منـــه جمـــر الحـــزن قطفا

ويعيب الشاعر تكراره لكثير من معانيه فى قصيدة واحدة . وتعبيراته الخطابية المباشرة التى تقلل من قيمة التجربة هنا وذلك حين يقول .

لمـــاذا تخلقـــون الـــزور عنـــــى ومـــاهـــــذا التجـــنب والتجنـــــى
أكـــــل جريمتـــــى فـــــى الحب أنى إذا أنشـــــدت ســـــر القـــوم منى

وألهـــــب مـــــن حماستـــــه الأكفـا

فمثل هذه المعانى بعيدة عن الأجواء الشعرية الحالمة وأجدر بها أن تكون حديث معاتبة أو تشف بين النساء أو شكوى لبعضهن من بعض .

-٢-

الحب يهذب النفس البشرية وينزع منها الكراهية وينمى فيها العواطف النبيلة الصادقة وهو طريق للأخوة الإنسانية وارتقاء سلم المجد .

فجبران فى كتاب النبى يجيب على " الميترا " حين قالت له . حدثنا عن الحب فقال فى صوت عميق . إن الحب إذا يكلل هاماتكم ليتخذ منكم القربان والغذاء . وهو اذ يشد من عودكم ليشذب منكم الأفنان والأغصان ، وكما يحلق بالغا هاماتكم ويداعب أرق غصونكم فتهتزمن النشوة فى رحاب الشمس ! كذلك يهبط إلى جذوركم فيهز أعماقها وهى متشبثة بباطن الأرض" . و يواصل جبر ان حديثه عن الحب ودوره فى تهذيب الطبيعة البشرية والتسامى بها إلى درجة

الصفاء الروحى حتى تصبح خبزا مقدسا فى مأدبة الله العلوية يقول : " ويضمكم إلى أحضانه كحزمة القمح ، وتحت عجلات النورج " يدرسكم ويعريكم وبالغربال يذروكم ، ومن القشور يحرركم ، وبين رحى الطاحونة يطحنكم طحن الدقيق ويعجنكم حتى تلين له قناتكم . ثم يسلمكم إلى ناره المقدسة حتى تصبحوا خبزا مقدسا فى مأدبة الله العلوية . كل هذا يفعله الحب بكم كى تعرفوا أسرار قلوبكم ، وبهذه المعرفة تصبحون قطعة من قلب الحياة . (١)

وجبران بهذا الأسلوب الذى يمكن أن أطلق عليه " الأسلوب الشعبى فهو رغم تحليقه فى آفاق البيان نراه يشتق صوره الأدبية من الحياة الشعبية فصورة الحصاد لاتفارق وجدان أى ريفى . والألفاظ التى ذكرها جبران هنا مثل حزمة القمح ، عجلات النورج ، يدرسكم ، يعريكم ، الغربال . يذروكم يعجنكم ، يطحنكم ، الخبز .

هذه الألفاظ تعطى لأدب جبران قيمة خاصة فهو قد استطاع أن يوظفها فى أداء غرضه الفلسفى فى الحب . وهى قدرة جديرة بالتقدير .

وندرة حداد يؤمن بأن الحب ينمى فينا العواطف النبيلة الصادقة . يقول مازجا الحب بالطبيعة البشرية والطيور التى تعطف على أولادها :

من علم الطير على ضعفها ... أن تبنى الأعشاش فوق الغصون
تحرسها الأمهات من عطفها ... كأنها الأجفان حول العيون
من أسهر الأم على طفلها ... صابرة تشقى ولاتضجر
حاملة ماليس من حملها ... وأتعب الأحمال مايستمر.

ويجيب الشاعر على هذه الأسئلة محددا الدافع الحقيقى لهذا العطف وهو الحب الفطرى الذى يسرى فى النفوس دون أن تدرى . يقول :

أخى ماحرك هذى النفوس ... فى الخلق من ناس ومن طير
إلا الذى يجرى كخمر الكؤوس ... فى كل نفس دون أن تدرى

* *

دعوه بالحب وكم عاشق ... أوصله الحب إلى ما أراد
ذا نعمة من نعم الخالق ... لولاه كان الخلق بعض الجماد

(١) جبران : النبى ص ١٢ .

ولذلك فالحب رفيق الإنسان فى معبده وحقله وكل أطوار حياته يقول :

ما الحب ياصاح سوى نفحة ... قدسية بين الورى تسطع
يرفعه الكاهن فى كأسه ... والقوم فى معبدهم خشع
يحصده الزارع أن أخصبت ... فى الموسم الأرض التى تزرع

والحب طريق للأخوة الإنسانية وارتقاء سلم المجد .

ويتشابه « ندرة حداد » مع نعيمه إلى حد كبير فى نظرته إلى الحب الإنسانى الخالص الذى يسمو فوق كل شىء يقول من قصيدته " سر معى " :

يا أخى الساعى لنيل المجد ... خفف عنك جمحك
سر معى فى الأرض نفسى ... المنال والجاه وطمحك
أنا راض بالعطايا ... أيها الحامل رمحك
وسأنسى جرح قلبى ... كلما شاهدت جرحك

والشاعر فى القصيدة السابقة يحمل روحا كبيرة تفيض بالخير والحب وتتدفق بالعطاء السخى دون مقابل . لكن هذا الموقف لا يؤدى دوره إذا كان ضعفا واستسلاما . وإلا فما جدوى قوله :

أنا راض بالعطايا ... أيها الحامل رمحك

فهل هذه دعوة للقنوط ؟ لا أعتقد لأن الشاعر لم تؤثر عنه فلسفة حياتية خاصة اللهم إلا إحساسه بالفقر الشديد وارتباطه بالمال ارتباطا عكسيا فهو يذم المال لأنه لم يعثر عليه . ويوصى ابنه بعد ذلك أن يحرص على جمعه .

وهو فى حنين دائم للطفولة هروبا من الواقع الأليم الذى يفاجئه كل يوم بالجديد القاسى.

* *

وهو أحيانا يتسامى فى حبه إلى درجة الألم . والرثاء لحالة الضعفاء بل – ومشاركتهم فيما حل بهم .

والقلب الذى لا يعرف الحب ، وبالعكس . فالشاعر الذى يحث إخوانه فى الإنسانية . ويريد لهم الخير والسعادة لابد أن تتفتت نفسه ألما لمصابهم وأحزانهم يقول حداد .

لاتفـــرح النفـــس الكريمـة أن رأت أختا حزينة
فابكـــى مـــع الباكى ومدى للضعيف يد المعونة

* *

والدكتورين إحسان عباس ومحمد يوسف نجم رأى فى ندرة حداد وهو أن سر تأثيره فى موقفه الشعرى وليس فى قدرته التعبيرية أو صوره الشعرية أو آفاقه الفنية يقولان :

ويعتمد ندرة على الموقف الشعرى ، خاضعا فى ذلك لطبيعته الرومانطيقية وأكثر مواقفه قرانات مزدوجة ، أحد طرفيها الشاعر نفسه مثال ذلك الشاعر وورقة الخريف ، الشاعر والزهرة ، الشاعر والجبل ، الشاعر والربيع . وفى هذه القرانات نسمعه يقول للزهرة : أنت سترجعين ، أما أنا ويقول للجبل : أنت مصدر الوجود ، ولاعقل لك ، أما نحن ويقول للربيع .. أنت خالد أما صباى .

وفى كل موقف من هذ المواقف الشعرية ، تجده ينقل الحقيقة مرتين ، ولايترك فرصة إدراك العلاقة المتضمنة فى وقفته أمام هذه المظاهر بل هو يشرحها ويفسرها وكان يكفيه أن يتحـدث عن الجـبل ، ليشعر القارىء أنه يتحدث عن نفسه ، أو يتحدث عن عودة الزهرة متحسرا ، موحيا للقارىء أنه عاجز عن أن يعود كما تعود الزهرة .

ومع كل ذلك فإن أكثر التأثير الذى يحدثه شعر هذا الشاعر ، معتمد على هذه المواقف الشعرية نفسها .

... والحب لايعرف الكراهية حتى لمن يتباهون بالقيم الخسيسة (١) عند نعيمة ويكاد ينفرد نعيمه بهذه الظاهرة تأثرا منه بالمسيحية ومبدأ التسامح . وشعار المسحيين " مالقيصر لقيصر وما لله لله " يقول " :

(١) م . نعيمه : زاد المعاد ص ٦٨ .

لاتبغضوا الشرير وابغضوا الشر لأنكم إن أبغضتموه أصبحتم أشرارا مثله . أما إذا أبغضتم الشر فقد تقتلونه وتهتدون إلى الخير .

إن أحببتم كل مافى الكون إلا دودة واحدة فإنكم مابرحتم تكرهون ذواتكم بقدر كرهكم لتلك الدودة .

وهذه النزعة المتسامية فوق الكراهية التى تصل إلى درجة مباركة اللاعنين نادى بها نعيمه بعد عودته من المهجر تأثرا منه بالإنجيل وعبارته القائلة .

أحبوا مبغضيكم وباركوا لاعنيكم

وقد ترجم نعيمة الفقرة السابقة شعرا فقال من قصيدته " أنشودة .

قـــدمت حبـــى لمبغضيّـــا ... لقـــاء ما قـــد جنـــوا عليا
فكـــان حظـــى مـــن مبغضيـــا
أن عـــاد حبـــى بغضـــا إليـــا (١)

ولاشك أن هذا الحب حب سلبى ذابل لأحد يحس به ولايستمع إليه فالشر لابد أن يبتر ، والنار لابد أن تخمد ، وحينما تمتهن كرامة الإنسان فيتحول الحب إلى شحنات متدفقة من الغضب حبا فى البقاء على مقومات حياته ولبنات كرامته . وذلك هو الحب الإيجابى البناء الذى لايتجمد فى نزعات سلبية .

ولكن نعيمه يؤكد معتقده السابق . ويصور نفسه فى موقف الدفاع عن النفس . والصورة هنا بدائية . فالشاعر يعلو متن جواده . وسلاحه السهم . ويروشه على الأعادى ولكن يموت الجواد تحته . ويرتد السهم إلى فؤاده . وبذلك يدعونا الشاعر إلى المحبة الدائمة التى لاتعرف أعداء يقول :

علـــوت يومـــا مـــتن جـــوادى
ورشـــت سهمـــى علـــى الأعـــادى
فخـــر ميتـــا تحتـــى جـــوادى
وارتـــد سهمـــى إلـــى فـــؤادى

(١) م . نعيمة : خمس الجفون ص ٦٦ .

والحب عند أبى ماضى يوقظ الشعور ويضىء الكون ويجمل الحياة ويوحد الإنسانية يقول .

أحـــبب فيغـــدو الكـــوخ قصـــرا نيرا ... وابغـــض فيمســـى القصر سجنا مظلما
والكـــاس لـــولا الخمـــر غيـر زجاجة ... والمـــرء لـــولا الحـــب الا أعظمـــا
لـــو تعشـــق البيـــداء أصبـــح رملها ... زهـــرا وصـــارسرابهـــا الخداع مـا(١)
لاح الجمـــال لـــذى نهـــى فأحبـه ... ورآه نو جـــهل فظـــن ورجمـــا

واعتمادا لشاعر على المطابقة والتضاد هنا بهذه الصورة يذكرنا بمذهب البديع فى الشعر العربى فى أزهى عصوره . ولكن الشاعر هنا لم يترك الألفاظ توحى بل أفرغ كل مافى جعبته فنراه يستطرد ويجعل البيت كله مقابله على هذه الصورة .

أحبب وأبغض ، فيغدو . فيمسى ، الكوخ ، القصر ، قصرا سجنا ، نيرا ، مظلما وتكثر هذه الظاهرة فى شعر إيليا أبى وبخاصة فى قصيدته " الطين " ولكن وعى الشاعر وصدق شعوره يجعل صوره غير متنافرة .

وفى قصيدة ، أنفس العشاق " (٢) يقول أبو ماضى إن جهنم الحقيقة ليست هى التى أخبر عنها الهداة المعلمون .

" لكنمـــا أن لاتحـــب جهنـــم ثم يخاطب صاحبه
ياصاحبـــى أن الخـــواء هـــو العـذاب الأعظم
القـــلب الا بالمحـــبة منـــزل متـــــردم
هـــى للجـــراحـــة مرهـــم ، هى للسعادة سلم
هـــى فـــى النجـــوم تألق . هـــى فى الحياة ترنم
هـــى أنفـــس العشـــاق فى عمق الدجى تتبسم

وفى قصيدته " تلك السنون " يؤكد قيمة الحب فى وحدة الإنسانية فيقول :

مـــن كـــان يحلـــم بالسمـــاء فإننـى ... فـــى قـــلب انســـان وجـــدت سمائـــى
ليـــس الجمـــال هـــو الجمـــال بذاته ... الحســـن يوجـــد حـين يوجـد رائى

(١) لايخفى مافى هذه القافية من قلق واضطراب : فالكلمة أصلها " ماء " .

- ٣ -

"الحب اكسير الحياة " :

وقد آمن المهجريون بأن الحب قانون حياتهم وغذاؤهم وشرابهم وعطاؤه لايحد وهو يجفف ينابيع الألم ، وينشر السلام فى الأرض وهذا التصور للحب يبدو فى نتاج نعيمه وجبران وأبى ماضى أكثر من غيرهم فالحب عند جبران هو ابن التفاهم الروحى يقول :

" ما أجهل الناس الذين يتوهمون أن المحبة تتولد بالمعاشرة الطويلة والمرافقة المستمرة . إن المحبة الحقيقية هى ابنة التفاهم الروحى وإن لم يتم هذا التفاهم بلحظة واحدة ، فلا يتم بعام ولا بجيل كامل . (١)

والحب يجفف ينابيع الألم وينشر السلام فى الأرض عند نعيمه .. وفى كتاب زاد المعاد يكتب مقالتين إحداهما بعنوان " ينابيع الألم " (٢) ٦١ - ٦٩ " والأخرى بعنوان سلام الله وسلام الناس . ١٠٩ - ١١٩ " (٣)

ويرى أن القضاء على الألم لايكون إلا باعتناق الحب مبدءا فى الحياة فيقول فى مقالته " ينابيع الألم " إنكم إن شئتم الخلاص من الألم فعليكم أن تحبوا نواتكم غير أنكم إن أنصفتم الناس كلهم وظلمتم طفلا واحدا فلكم فى ظلمكم هذا ينبوع ألم . لأنكم لم تظلموا إلا أنفسكم ولن تتخلصوا من ظلمكم حتى تنصفوا .

أما متى اقتبلتم الحياة كلها مثلما تقتبل البحار أنهارها والأرض أثمارها فحينئذ :

(إذا ذبحتم لتأكلوا كانت ذبيحتكم قربانا تقدمه نفسكم لنفسكم

وإذا مازرعتم لتحصدوا كان ماتزرعون وماتحصدون خلوا من الشوك والزوان

وإذا هتفتم ، ياأخى " عاد هتافكم إليكم من فم كل إنسان

وإذا ناديتم الحياة بصوت واحد أجابتكم كل أصوات الحياة

---

(١) جبران : الأجنحه المنكسرة ص ٢٢ .
(٢) م . نعيمه : زاد المعاد ص ٦٩ .
(٣) السابق ص ١١٤ .

وحينئذ كانت الأرض أرضكم والسماء سماءكم)

وفى المقالة الثانية يوضح أن المحبة هى طريق السلام . فيقول عنه إنه " اتزان وائتلاف فى النفس ، هو شقيق المحبة ، بل هو المحبة . وهو روح كل روح ، وحياة كل حياة والقدرة التى بها يتماسك كل مافى الكون من محسوس وغير محسوس فلا يفلت منها شىء ولايهلك معها شىء .

تقولون لى : وهذا السلام أين نفتش عنه .

ألا فتشوا عنه فى قلوبكم ، أما فى غير القلب فعبثا تفتشون . هناك فى ذلك العالم المتناهى بحجمه اللامتناهى بقوته . فى تلك الرمانة المرصوفة بكل أصناف النزعات والشهوات . هناك اعقدوا مؤتمراتكم للسلم . (١)

ثم يدعو الكاتب الناس إلى المحبة والسلام . وهو فى تعبيره الفنى غالبا مايستعمل فعل الأمر الذى يشبه الالتماس أو الدعاء . ثم يلجأ إلى الحوار والقياس المنطقى وإعطاء المقدمات ثم البراهين ثم النتيجة .

ويعبر عن رأيه فى السلام قائلا .

تعالوا نشد مدينة للسلام

تعالوا نشدها من قلوبنا فى قلوبنا ، ولنطوقها بسور منيع من الإيمان بجمال الحياة وعدلها وكمالها . ولنجعل الفكر النير حارسا لها والخيال المبدع علما يخفق فوق أبراجها ، ولتخط بأحرف من نور على كل باب من أبوابها هذه الكلمات الثلاث :

سـلامكـم فـى قلوبكـم (٢)

وفى قصيدة . فتش لقلبك " يجرد الشاعر من نفسه شخصا أخر وكأنه صوته الداخلى المعذب والليل يمر ثقيلا وهو مرتجف العظام والفجر يميل عنه إلى سواه . لأنه فقد المسير فى الليل ، وتغذى من القلب عند الفجر . ويخوض ميدان الكفاح نهارا حتى يخر من ألم الجراح ولايجد من يؤاسيه . وفى قفار الحياة الواسعة يجول ويفقد سبيله لأن قلبه فقد الدليل .. ثم

(١) السابق ص ١١٤ .

(٢)م . نعيمه : زاد المعاد ص ١١٩ .

يناديه فى النهاية :

أسفـــــى عليـــك فـــــلا الذهـــــاب
سهـــــل لـــديـــــك ولا الإيـــــاب
ستظـــــل تخبـــــط فـــى ضبـــاب
حتـــــى ينيـــــر لـــــك الطـــــريق
قلـــــب يكـــــون لقلبـــــك الواهـــــى رفيق

فالحب هنا يمثل الخلاص من عذاب الحيرة . وقد أعطى الشاعر صورة بليغة لهذه الحيرة . وتردد الأسلوب بين الخبر والإنشاء هو صدى مافى النفس من تذبذب – واضطراب .

وترويع الظلام ، وارتجاف العظام ، والهم الارتباك ، والأنين والسقوط من ألم الجراح والتجول فى القفار ، والتستر بالغبار ، وفقد السبيل إلى الديار ، كل الصفات السابقة تعطينا تشخيصا دقيقا لذلك الإنسان الذى اشتقه نعيمه من نفسه ليضفى على قصيدته بعداً إنسانياً شاملا . وهو يصور الشقاء الإنسانى فى غياب الحب والعنصر القصصى يسود القصيدة برغم قصرها .. واتخاذ القالب الزمانى المتمثل فى الدورة اليومية ليلا ونهاراً لصب المشاعر وسيلة فنية يكررها نعيمه كثيرا وكذلك جبران وهى على ماأعتقد رمز لمراحل حياة الإنسان

* *

والحب هو " أكسير " الحياة عند جبران .. وقد عبر عن هذه الحقيقة فى كتاباته المتعددة ففى كتابه " رمل وزبد " يقول إن الحب يبدل الأشياء كلها .

يقول لى منزلى : لاتهجرنى فها هنا يقيم ماضيك .

ويقول لى الطريق : هلم فامض فى إثرى فإنى لك المستقبل .

وأقول لهما معا : منزلى والطريق أنا لا ماضى لى ولامستقبل .

وإذا ماأقمت هنا ففى إقامتى رحيل . وإذا مارحلت ففى رحيلى إقامة .

الحب والموت وحدهما يبد لان الأشياء كلها . (١)

(١) م . نعيمة : همس الجفون ص ٩٤ .
(٢) جبران – رمل وزبد ص ١٨ .

والحب عنده كلمة خطتها يد من نور على صفحة من نور (١) .

ولايرتبط الحب عنده بالشكوى والنواح ، ولكنه نشوة ومتعة روحية " يقولون إن البلبل يخز صدره بشوكة حين يغنى أغنية الحب . وكذلك نحن جميعا نفعل . هل من سبيل آخر للغناء . (٢) ويعتمد جبران فى خواطره وأمثاله على الأسلوب الموحى المركز الذى يحمل تجربة شعورية مكثفه وهو فى مفهومه السابق للحب يتبع خطه الثائر . وأدواته الفنية هنا التنظير .. والاستفهام الذى يوحى بالحدة الانفعالية فكأنه ينتزع قلبه مع صيحته " هل من سبيل آخر للغناء "

* *

والحب عنده عطاء لايحد وفقده خسارة كبيرة لايعوضها المال ولا الجاه حتى لو كان الأب ملكا .

وهذا المفهوم للحب عند جبران يفسر لنا مأساة فوزى المعلوف حيث لم يستطع المال أن ينسيه أطياف حبه ، ولا استطاع أن يضمد جراحه الفائرة والغائرة فى روحه اليائسة .

وفى حديقة النبى : يصورجبران نظرته للحب عندما يقف المصطفى وحده على قبر أمه يخاطب أطياف روحه وأحبابه المتفرقين عنه : يقول لهم :

أنظروا إلى إبنة الملك التى تزينت بكل ما تملك " وفى سكون الليل نشدت ابنة الملك العظيم الحب فى الحديقة غير أنها لم تجد فى ملك أبيها الواسع جميعا من خفق قلبه بحبها . (٣) .

ويقول معبرا عن بساطة الحب مجسداً بعض صوره المختلفة . ليتها كانت ابنة فلاح ترعى غنم أبيها فى النهار . وتسترق الخطا صوب الوادى فى السماء ، حيث الحبيب فى انتظارها .

وليتها كانت عجوزا تجلس فى الشمس تذكر من شاركه الشباب . (٤)

---

(١) جبران السابق ص ٢٢ .
(٢) جبران السابق ص ١٩ .
(٣) جبران : حديقة النبى ص ٩٦ – ٩٧ .
(٤) السابق ص ٩٧

وعن كيفية الحب وطبيعة الخوض فى بحاره المتلاطمة : يقول جبران فى كتاب النبى . فإذا أحببت ولم يكن مفر من أن تساورك رغبات فلتكن هذه رغباتك .

أن تذوب حتى تصبح كالغدير المنساب يشدو الليل بألحانه ، وأن تحس الألم النابع من فيض حنان كبير .

وأن تدرك بنفسك الحب فتتقبل طعناته .

وأن ينزف دمك راغبا مبتهجا .

وأن تنهض مع الفجر بقلب يطير لتستقبل شاكرا يوم حب جديد .

وأن تغفو وقت الظهيرة مسترجعا نشوة الحب .

وأن تعود إلى مأواك عند الغروب مقدرا للجميل .

ثم تخلد إلى النوم وقلبك يسبح بمن تهوى وشفتاك تتغنيان بالحمد والثناء (١)

* * *

.... وعند أبى ماضى الحب نور خالد متجدد لايفنى بفناء الأجساد : يقول من قصيدته " الدمعة الخرساء ..

فالحب نور خالد متجدد : لا ينطوى إلا ليسطع نور
وينسو الهوى أحلامهم ورؤاهم لأعين ومراشف وبخور

وفى القصيدة السابقة يعلن أبو ماضى عقيدته فى تناسخ الأرواح والحب كان دافعه إلى ذلك لأنه يخاف من الموت على الحب . فتوهم أنه سيبعث مع حبيبته فى صورة وردة – تضوع بالشذى أو طائر يغنى أعذب الألحان . والشاعر يخاطب زوجته " دوروثى " .

ويفصح عن هذا الشعور المبهم بعد سنوات طويلة . فى ديوانه تبر وتراب الذى طبع بعد موته ففى قصيدته " لو " (٢) يخاف من الموت فى حضور الحب وقد مرت هذه اللحظة الخائفة بقلب الشاعر فوزى المعلوف .

---

(١) جبران . النبى ص ١٥

(٢) أبو ماضى . تبر وتراب ص ١٣١

والقصيدة تعين اسم المحبوبة وهى " هند " وقد يكون الاسم رمزا شعريا اعتاد عليه الشعراء العرب . ويخاطبها الشاعر متأملا جمالها وخائفا من شبح الموت :

فيـــك وفـــى الـــوردة سـر الصبـا ... وفـــى الصبـــا ســـر الهوى والجمال
فـــان تريـــنى واجمـــا باهتـــا ... حيالهـــا أخشـــى عليهـــا الـزوال
فإننـــى شاهـــدت طيـــف الردى ... ينســـل كالســـارق بـــين الظلال

ولاح لـــى فـــى الـــورق النـــامى
منطـــرحا فـــى الأرض قـــدامى
أشبـــاح أمالـــى و أحلامـــى
أحـــلام مـــن ؟ أحـــلام مضناك

والحب بوابة ندلف منها إلى الحرية والسماحة الدينية :

يقول جبران وهو يعشق الحرية ويضحى فى سبيلها " المحبة هى الحرية الوحيدة فى هذا العالم لأنها ترفع النفس إلى مقام سام لاتتبلغه شرائع البشر وتقاليدهم ولاتسوده نواميس الطبيعة وأحكامها . (١)

وقاده هذا المفهوم للحب إلى التمرد على التقاليد الاجتماعية البالية وكان نتاج هذا التمرد قصة " الأجنحة المتكسرة ، وخليل الكافر ، ومرتا البانيه ، ووردة الهانى " . كذلك أداه إلى التسامى بعقيدته والرقى بها إلى أفق التسامح ونبذ العصبيات الدينية . حيث يقول :

" أحبك ياأخى ساجدا فى جامعك ، وراكعا فى هيكلك ، ومصليا فى كنيستك . أنت رفيقى على طريق الحياة المستترة وراء الغيوم "

والحب لايعرف الأغراض ولا الأهواء

وفى قصيدة المواكب نتعرف على هذه الظاهرة حيث يتراءى لنا جبران شاعرا مثاليا يتمتع بنفس مترفعة عن الدنايا والأغراض . وهى تحب لذات الحب : يقول :

والحـــب فـــى النـــاس أشكال وأكثرها ... كالعشـــب فـــى الحقـــل لازهـــر ولاثمـــر
الحـــب إن قـــادت الأجســـام موكبـــه ... إلـــى فـــراش مـــن اللـــذات ينتحـــر

ونلمح هنا رفض جبران لما تواضع الناس عليه من قيم فى الحب جعلته حقلا مجدبا لا عطاء منه يرجى ، ولادورا فى إسعاد حياة الناس . وكعادته اتخذ الطبيعة وسيلة فنية ، واعتمد

(١) جبران : الأجنحة المتكسرة ص ١٣ .

التشبيه والتجسيم لإثارة الاحساس المتلقى فالحب كالعشب وهو ينتحر إن مسته اللذة وحينما نتعمق هذه المفاهيم نعثر على مزاج جبران الأفلاطونى وثقافته النفسية وتعمق الحب فى نفوسهم حتى اعتقدوا أنه قدر لايستطيع الإنسان الخلاص منه حتى لو أراد .. وهذه الظاهرة تبدو فى حياة أبى ماضى بصورة واضحة وقصيدته " فى القفر " (١) ترجمة لذلك الإحساس . فقد مرت به لحظات من السأم وملت نفسه الناس ، وضجر من قيم الحياة الزائفة ، ومعادنها المغشوشة " وعملاتها ذات الوجهين المتناقضين . الوجه والقناع ولايرى إلا القناع فاختلطت عليه القيم وغامت فى عينيه حقائق الأشياء ولكنه فى النهاية يعود ويرتبط ببشريته وبأرضه وبحياته فالناس كلهم ساكنون فى ثيابه وقلبه . ويختم هذه القصيدة بهذا البيت الجامع .

خلـــــت أنـــى فى القفـــر أصبحت وحـــدى
فـــــإذا النـــــاس كلهـــــم فـــــى ثيابـــــى

وقد صدر ميخائيل نعيمة مقدمته للجداول بهذا البيت وعلق عليه قائلا لقد قرأت لأبى ماضى كثيرا من طيب الشعر وجميله غير أنى لست أذكر أنى قرأت له أصدق من هذا البيت .

أو لست تسمع عند قراءته قلوب الإنسانية نابضة فى قلبك ، تشهد أمواج أفكاره متلاطمة فى بحر فكرك ؟ .

أو لست تراك رفيقا لكل وحيد فى وحدته ؟ ولكل غريب فى غربته ؟ وشريكا لكل أثيم فى إثمه .. ولكل عالم فى علمه ؟ (٢)

ورافقه هذاالشعور الإنسانى العام طيلة حياته . وفى ديوانه تبر وتراب : – قصيدتان الشاعر والكأس ، وقصيدة الشاعر .

وفى الأولى يصور الشاعر وهو يملك الكون فى يديه لكنه:

صامـــــت مثـــــل كتبـــــه وكدنيـــــــا بـــــــلا أنـــــام

وكل مغريات الحياة أمامه :

لـــم تـــــزل كأســـــه لـــديـــه وفـــــى كـــأســـــه مـــــدام
ولـــــه تضحـــــك البـــــروق ويبكـــــى الحيـــــا السجـــــام
ولـــــه ترتعـــــى الكواكـــب فـــــى مســـــرح الظـــــلام
ولـــــه تلبـــــس الربـــــى بـــــرد النـــــور والغمـــــام

(١) أبو ماضى : الجداول ص ٤٨
(٢) الجداول : مقدمة نعيمه ص ٣ .

ولـــــه يعبـــــق الشـــــذى ولـــــه تعصـــــر المـــــدام
ولـــــه يلمـــــع النـــــدى ولـــــه يسجـــــع الحمـــــام
ولـــــه الغـــــادة المليحـــــة والفـــــارس الهمـــــام

وكل المغريات السابقة لا تجلب السعادة له !! فما سر شقائه الكبير ؟

يجيب الشاعر معلنا قيمة الحب فى تجميل الحياة وامتدادها البهيج .فسبب شقاء الشاعرهو هروب الحب منه وموت الهيام فى قلبه مما جعل الكون قبرا كله رمام .

بقـــــى الحســـــن إنمـــــا مـــــات فـــــى الشـــــاعر الهيـــــام
فـــــإذا الكـــــون عنـــــده جـــــدث كلـــــه رمـــــام

ومعجم الشاعر هنا لم يتغير . فالطبيعة الأرضية ، والطبيعة الفضائية وما تطوى كل منهما من مفردات مازالت تقتحم خيال الشاعر أو يهجم عليها خياله ليعبر عن مواقفه المختلفة لكن روح أبى ماضى المتفائلة تختفى ظلالها هنا .

وأعتقد أن الشاعر أحس بشبح الموت ينسل كالسارق بين الظلال كما عبر فى قصيدته " لو " وتجمدت حرارة العاطفة فى قلبه فهرب منه إحساسه الشبابى المتوهج وشعر ببرودة الفناء تسرى فى كيانه : فصور ذلك الواقع فى هذه القصيدة على هذا النحو القاتم البليغ .

ونعثر على تفسير للإحساس السابق فى قصيدته " الشاعر " التى يهديها إلى روح خليل مطران وهو يقدر الشاعرتقديرا يرفعه إلى مرتبة القداسة ويبالغ فى هذا إلى درجة التطرف والمغالاة المذمومة فيقول :

أى وربـــى لـــو مضـــى الشاعر عنا لبقينا
ولعشنـــا بعـــده فـــى غصص لاينتهينـا
ولأمـــسى اللـــه مثل الناس مغموما حزينا

ولذلك نراه حزينا لإحساسه وهو الشاعر بخطوات الموت تدب على قلبه وهو يعتقد أن وظيفة الشاعر أبدية أزلية خلق مع الإنسان ، وعاش معه فى كل العصور ، يقينا يصرع الشك ، وأمنا يهدم الخوف ، وحبا يميت البغض وأملا يحرق اليأس ، وحياة لاتعرف الموت ، فى قلبه تتلاقى الأزمنة ، وتتلاشى المسافات . لتنطلق من جديد مؤكدة ذاتها وقدرتها على تجميل وجه

الحياة الشاحب .

- ٤ -

"وآمن بعضهم بأن الحب قوة تصون صاحبها وتحمى حقوقه ، وإلا كان ضعفا وجبنا" ، وهذه الظاهرة يخالف فيها القروى بل ويثور على مضمون الحب عند نعيمه - الذى يدعو إلى حب المبغضين ومباركة اللاعنين .

وكذلك يخالف جبران فى موقفه من الحب العام حيث يدعونا إلى حب الكون كله بما فيه من متناقضات ونقائص بدافع من إيمانه بوحدة الوجود .

وإن كان القروى فى تسبيحة الحب " يدعو أعداءه إلى السلام ويعلن أنه ليس مبغضا لهم . ولكنه لم يعلن مباركتهم والاستسلام لهم .

يقول :

عـــدوك ياعـــدوى مـــن تـــوارى ... بصـــدرك موقـــدا بحشـــاك نـــارا
فـــان تطلـــب مـــن الأعـــداء ثارا ... فـــأنخ النـــاس وانتحـــر انتحارا
فأعـــداهم بثـــوبك قد تخفى (١)

والثورة على الحب النعيمى مما تميز به أدب المهجر الجنوبى فقد كانوا .. وبخاصة القروى وفرحات من أشد أعداء هذا اللون من ألوان الحب الذى يدعوهم فى النهايه إلى إلقاء أسلحتهم فى معركة النضال العربى وتقبيل أيدى الغربيين . (٢)

ويرى القروى أن الدين الذى يعلم الناس أن يحبوا أعداءهم هو الذى يغرس فى نفوسهم معانى الذل والخنوع فيجعلهم يتقاعسون فى الجهاد فيقول :

" أحبـــو بعضكـــم بعضـــا " وعظنـــا ... بهـــا ذئـــب فمـــا نجـــت قطيعـــا
فيـــا حمـــلا وديعـــا لـــم يخلـــف ... سوانـــا فـــى الـــورى حمـــلا وديعا
غضبـــت لـــذات طـــوق حـــين بيعت ... ولـــم تغضـــب لشعـــبك حين بيعا (٣)

(١) ديوان القروى ص ٧٩٦ .
(٢) د / أنس داود التجديد فى شعر المهجر ص ٢٨٥ .
(٣) ديوان القروى .

فهو يؤمن بأن المحبة وحدها لاتكفى فى النضال من أجل الحرية لأنها إذا كانت من الضعيف للقوى . فهى ضعف وجبن وتملق ، والقوى لايؤمن بها ولا يأبه لها ولذلك لايمكن للحب والإنسانية أن يحررا عنقا من نير أو يخلصا معصما من قيد .

— ٥ —

ويتخذ الحب لونا آخر عند القروى يمكن أن أصفه بالتفرد " فهو يختلف عن الصبغة العامة التى صبغت الثوب المهجرى المطرز بالحب ، ويخالف هذا اللون – منهجهم العام حتى عقيدتهم واتجاهاتهم وبنائهم الفكرى . فقد اصطبغ الحب عنده بالعصبية أحيانا . وكان الدافع إلى ذلك غيرته على وطنه وقومه .

وذلك أنه أعرض عن حب صديقته الإنجليزية ، لا لشىء إلا لأن قومها أذاقوا قومه الذل والهوان . إنه يخاطبها فى جفاء تمليه العصبية وحب يمليه القلب .

ولـــو لـــم تكـــونى فرنجيـــة ... لكـــنت سعـــادى قبـــل سعـــاد
ولكننـــى عـربـــى المنـــى ... عربـــى الهـــوى عربـــى الفـؤاد
لعمـــرك يـــا " مـــود " لولا بنـــوك ... لمـــا ميـــز الحـــب بـــين العبـاد
فـــلا تقربـــى شاعـــرا زاهـــدا ... وكـــم هـــام بالحـــب فى كل واد
فإنـــى حـــرام عـــلى هـــواك ... وفـــى وطنـــى صيحـة للجهـاد (١)

الحب الخاص : " الرؤية الذاتية الوجدانية "

يتهم كثير من النقاد شعراء المهجر بجفاف الطبع والبعد عن الحب الخاص ومنهم " صلاح لبكى " فى كتابه لبنان الشاعر " يقول : إن جمال المرأة ظل غائبا عن شعر المهجر إذا استثنينا جبران .. وإن دواوين المهجر قد خلت من الغزل .

ومن هؤلاء أيضا الشاعر عزيز أباظة . يقول : إن الحب عندهم يكاد يكون ثانوى القيمة فى عناصر الحياة . لامعنى عميقا فى أغوار الإنسانية . (٢)

وهناك نقاد يرفضون الرأى السابق ويؤكدون إحساس المهجريين بالمرأة والتعلق بها ومنهم

---

(١) السابق :

(٢) محمد عبد الغنى حسن : الشعر العربى فى المهجر ص ٢٥ .

د / حسن جاد الذى يتساءل فى غرابة قائلا .

هل نستطيع أن نجرد أدباء المهجر كبشر من الشعور الغريزى بالمرأة ونبرئهم وهم شعراء من الإحساس بجمالها . والهيام بها والصبوة إليه ؟ قد أحبوا المرأة بحكم الغريزة . وأحبوها بحبهم للجمال ، وأحبوها بحبهم للإنسانية ، ومظاهر الطبيعة والوجود . وأحبوها أولا وآخرا بحبهم للحب ذاته وتقديسهم له . (١)

ويقول : د / أنس داود إن شعراء المهجر اعتدوا بحب المرأة وازدهرت قصائدهم فيه بل وطبع أقدارهم . فقد قضى الشاعر فوزى المعلوف شهيد حب وثار جبران على المجتمع وتقاليده ، والدين ورجاله من خلال دفاعه عن حبه الأول . وغنى كافة شعراء المهجر للمرأة أعذب الغناء . (٢) ولاشك أن الحق مع القائلين بإسهام المهجريين فى الحب وحب المرأة بالذات " بأدبهم " شعرا ونثراً .

وهنا أدلى بشهادة الشاعر رياض المعلوف فى هذه القضية فهى دليلى ثم تأتى بعد النصوص التى تركها هؤلاء الأدباء .

قال الشاعر رياض المعلوف حينما وجهت إليه السؤال التالى :

مارأيكم فى الحب وشموله لقضايا الحياة كلها . أو انحصاره فى دائرة الرغبة فقط ؟ وماهو السر المختبىء خلف " شعلة العذاب الذى أبحر مع بساط الريح خارج الغلاف الأرضى سابحا فى الملكوت مع روح فوزى الأثيرية ؟

قال :

" الحب هو قصة الحياة كلها .. ولاحياة بلا حب ! ومسكين ألف مرة من لايحب ومن لايعرف الحب ! رغم متاعبه . ومصاعبه .. ومغامراته .. وخيبة الأمل فيه .. أحيانا . ومما لاشك فيه أن الرغبة .. هى الدافع الذى يدفعنا إلى الهيام والوله ! والحافز إلى التلاقى والتلاشى الذاتى .. فى ذات من نحب !!

وشعله العذاب عند أخى فوزى هى شعلة الحب السماوية المتصلة بالله والروح المجنحة

---

(١) د / حسن جاد : الأدب العربى في المهجر ٢٢٩ .

(٢) د / أنس داود : التجديد فى شعر المهجر ص ٢٨٩ .

التى حملته على بساط الريح من الأرض إلى الأثير يسبح فيه بين الغيوم والنجوم . (١)

ولنا أن نتساءل : أى نوع من الحب هذا الذى احتضنه شعراء المهجر وأدباؤه ؟ أهو الحب العذرى الخالص . الذى يتغنى بجمال المحبوبة بعيداً عن كل لذة جسدية . وارتقاء بالحواس إلى درجة التفانى والتقديس لذات المحبوبة ؟ أم هوالحب الذى نشتم منه رائحة الجسد . وتتلوى حروفه مع أجساد الفاتنات وتتفجر الرغبة فى نفوس أصحابه على نحو ماكان عليه بعض الشعراء العرب القدامى أمثال امرىء القيس وأبى نواس .

ومما لاشك فيه أن الحب عند شعراء المهجر كان يدور فى فلكى هذين النوعين ولكن الحب المتسامى الذى يبصر فى المرأة جوانب الإنسانية ومساواتها له فى الوضع الاجتماعى فى المرحلة الثقافية وفى الإحساس بالمسؤولية ذلك النوع من الحب كان هو السائد فى أدب المهجر . ولم يفتقد أيضا هذا الأدب الهيام بالمرأة والتعلق بها . ووصف مفاتنها . والخبرة بطبائعها . ودلالها وصدها ، وإقبالها . وتمنعها وتلطفها ، وحيائها ، وتحايلها .. وكل أحوالها .

وفى مقدمة هؤلاء الشعراء الشاعر رياض المعلوف .. وقد اعترف لى بهذا فى رسالة شخصية قال " إنه لم يذق أى شاعر شرقى أو غربى مما ذقته من لواعج الحب والمماطلة .. واللقاء .. والملاطفات .

فلا قيس بن الملوح ولا عمر بن أبى ربيعة .. ولا الشاب الظريف ذاقوا ماذقته وما حملته وما عرفته من هنيهات سعادة ووصال وإغضاء أحيانا وابتعاد .. وعذاب لذيذ فى انتصار محبوبة لفها الحسن ببهائه واغرائه . (٢)

وقد أرسل إلى القصيدة التاليه . وكأنما فى شعرها قمر .

إلى حسناء وضعت وردة فى خصلة شعرها

---

(١) من رسالة بعث بها الشاعر إلى في ١٣ / ١٢ / ١٩٧٧ م .

(٢) من رسالة بعث بها الشاعر إلى فى ١٧ من فبراير سنة ١٩٧٩ م .

وامتعتـــى بالصـــــدر والعنـــــق ... وبـــوردة فـــى شعرهـــا اللبـــق
وكـــأن وردتهـــا بخصلتهـــا ... قطفـــت مـــن الغيمـــات فى الأفق
وكأنمـــا فـــى شعرهـــا قمـــر ... أنـــواره تفتـــر فـــى الغســـق
وفـــم كـــأن الفجـــر لَوْنَـــهُ ... أو أنـــه مصبـــوغ بالشفـــق
راحـــت تحدثنـــى وتغمزنـــى ... وأنـــا أمـــوت بغمـــزة الحدق
وأجبتهـــا وكتمـــت عاطفتـــى ... فـــى الصـــدر طـــى القلب فى العمق
فوصفـــت أجمـــل مـــارأى بصرى ... واللـــه أعلـــم . ما اختفى أو مابقى (١)

* *

ودواوين الشاعر مفعمة بالقصائد العذاب التى توحيها إليه حواء . ففى ديوان" زورق الغياب " أنظر هذه القصائد .

– أقبلها " ٧ " النهد الأهوج " ٨ " إلى راقصة شرقية " ٩ " . الدن السكران " ١٤ " الغصن المثمر " ١٦ " الشفاه السمر " ١٨ " أواه منه " ١٩ " ، أنت لى " ٢١ " نهر هو القمر المشع " ٢٣ " ياساحر الأجفان " ٢٥ " ، النعيم الأسود " ٣١ " تنظرنى " ٤٣ " على ضلوعى " ٤٥ " ، ذكرتك " ٤٧ " يامطلع الصباح فى ليلنا " ٥٤ " يامسكر العندليب " ٦ " رعشة البرعم " ٦٣ " الغرفة الزهراء " ٦٦ " ياساحر الأرواح " ٧٠ " شراع الحب " ٧٧ " جراح الحب " ٨٢ " ، مررت على الرياض " ٨٦ " عللينى " ٩٠ "

وديوانه " غمائم الخريف " حافل أيضا بأمثال القصائد السابقة التى توضح مدى – سيطرة نزعة الحب على " رياض المعلوف حتى يكاد يقصر ثلثى انتاجه على ذلك الفن القديم الجديد لغة القلب وهمس الشفاه ، وحوار الأعين وصوت الأجيال فى كل آن ومكان .

وقد لاحظت أن الشاعر يكرر ألفاظا معينة فى شعره تنم عن إحساسه المفتن بحواء ومجالستها . والتمتع بأطايبها . مثل الكأس ، الخمر ، الشفاه ، السكر ، الصحو ، الكروم ، الدوالى ، الخدود ، الثغور ، القبل ، وتكون الألفاظ السابقة معظم اللبنات التى يبنى منها رياض المعلوف قصائده الموشاة بنبض القلب وإغراء الحسن :

(١) تفضل الشاعر بإرسال هذه القصيدة إلى فى ١٧ / ٢ ٧٩ ضمن الرسالة السابقة .

واستفسرت منه عن هذه الظاهرة فأجاب في شاعرية متدفقة :

وهل يستوحى الشاعر شعره إلا من دمعة مفرحة ، وقبلة شفة سمراء كتمر الصحراء ، متأججة بنار المحبة . (١)

أليس فيما سبق مايؤكد قول من يقول إن المهجريين أحسوا بالمرأة بدافع من غريزتهم كبشر وإنسانيتهم كشعراء يتعمقون الحياة وينقبون عن أسرارها .

ولم يكن رياض المعلوف وحده هو فارس هذا الميدان .. فشقيقه شفيق المعلوف " فى ستائر الهودج . من خيرة الشعراء الذين ناجوا المرأة ودغدغوا أحاسيسها ، وفى ملحمة " الأحلام " وفى ديوانه " لكل زهره عبير ، ونداء المجاديف يتضح هذا المفهوم جيداً .

وإلياس فرحات يستهويه الجمال الحسى البعيد عن حرقة الهوى ولوعة الحرمان والقصائد الآتيه تفصح عن الحقيقة السابقة .

خصلة الشعر ، الراهبة ، غصة ، تعالى ، السكرة الخالدة ،

* *

وجورج صيدح من الشعراء الذين تغلب عليهم النظرة الحسية للمرأة والاستمتاع بكل مافيها من جمال أنثوى صارخ ، وموضوعات قصائده يغلب عليها الطابع الحسى أمثال هذه القصائد .

الصبوح والغبوق ، فى حدائق دمشق ، إلى جارتى ، على الشرفة ، سائقة السيارة ، ليلة البحيرة ، على الهاتف ، سأراك ، اللقاء الأخير ، .

والقروى . يعترف فى مقدمة ديوانه بخضوعه لإغراء المرأة ويقول إنها المنافس الوحيد لله فى القلوب ويعترف فى صراحة قائلا .

ولو لم يستجب فيما بعد مزاجى النارى إلى إغراء المرأة وهى أقوى منافس لله فى قلوب الأتقياء . لما كانت لى عنده خطيئة . (٢)

---

(١) من رسالة بعث بها الشاعر إلى فى ١٧ / ٢ / ١٩٧٩ م .

(٢) القروى : مقدمة الديوان ص ٢٠ .

ويقول بعد حكاية حبه العذرى الأول " توالت خلال ذلك وبعده قصص الحب المغرى تنقل في الأمكنة . وتنقل فى الهوى ، أحببت وبكيت كثيرا ، وأحببت وأبكيت أكثر . [١] وفى ديوانه نلمح هذه القصائد فى الجزء الأول .

حب مجهول / ١٢٦ ، الدعارة ، والهوى العذرى ، ١٣٠ ، لوترين / ٢٠١ ، بين الصداقة والحب / ٢٦١ وفى الجزء الثانى يخصص الشاعر جزءا كبيرا من الديوان - بعنوان " زوايا الشباب " ٦٩٥ - ٧٩٣ كله يضوع بالكلمات الكوثرية التى يشنف بها سمع حواء . ويحفل بالصور الشعرية التى يرسمها لحواء ويلقى بقلبه فى بهجة ألوانها وندى ظلالها . أو يحرقه فى جمر دلالها . ولهيب إغرائها . وهو فى كل حالاته سعيد لأن الحب قسمته من الحياة .

وحب المرأة لا يقف عند حدود الحس كما أوضحت سابقا . وإنما قد يكون حب المرأة بدفاع من التعرف على طبيعتها ، وقد يكون حبا روحيا خالصا هو الحب المثالى الأفلاطونى ، وقد يفلسف هذا الحب ليشمل القيم الإنسانية الكبرى والمعانى الخالدة .

وللشاعر رياض المعلوف ملحمة شعرية أو قصه شعرية أسماها " ليليت " وجعل شعارها " قبل أن يخلق الشيطان خلقت المرأة " .

وسأقف عندها قليلا لأنها تعالج نفسية المرأة بعمق مما يدخلها فى موضوع التأمل ويمكن أن أسميه " التأمل الإجتماعى " .

" ليليت : ملحمة شعرية للشاعر رياض المعلوف " :

عرض وتحليل :

الملحمة تتكون من تسعة أناشيد وكل نشيد يتكون من (١٤) أربعة عشر بيتا . وتصل فى مجموعها إلى ١٢٦ مائة وستة وعشرين بيتا .

واتبع الشاعر إيقاعا واحدا فى جميع الأناشيد . فالنشيد يتكون من مقطعين والمقطع الأول يتكون من ثلاثة أبيات من مجزوء الرمل . والثانى يتكون من أحد عشر بيتا ينهج فيه الشاعر موسيقى جديدة وهى غالبا من بحر المجتث فوزنه الأصلى مستفعلن + فاعلاتن . مستفعلن + فاعلاتن .

---

(١) السابق ص ٢٥ .

ويجوز أن يتصرف فى فاعلاتن فتجىء . فالات أو فعلاتن .. وعلى هذا الأساس يكون بحر المجتث هو أقرب الأوزان إلى إيقاع المقطع الثانى من كل نشيد .

وتعتمد الملحمة على حقيقة تشبه الأسطوره وهى تقول : جاء فى صحف بغداد أن أحد رجال البعثة الأثرية التى تبحث عن الآثار فى مدينة " أور " الكلدانية وفق إلى أكتشاف آثار تعود إلى ماقبل التاريخ وتشير إلى زواج آدم من ليليت – قبل حواء ثم تركه الأولى وزواجه من الثانية .

وليليت . عندما رأت آدم تحول عنها إلى حواء دبت نار الغيرة فى قلبها فلبست جلد أفعى وحملت على أن تطعم آدم التفاحة المحرمة التى كانت سببا فى إخراجه من الجنة . (١)

وهى بذلك تبنى على مغالطة تاريخية حسب الحقائق الدينية ولذلك أعدها من باب الأسطورة .

وهى من هذه الوجهة تلج بنا فى عالم الأسطورة المغلفة ببعض الحقائق التاريخية التى تلمس الحس الإنسانى العام ، فهى تعالج مأساة الوجدان فى النشأة الأولى منذ القدم .

ومن خلال منظور خاص ورؤية رومانسية يوضح الشاعر رأيه فى المرأة ، والقضاء والقدر ، والحب الذى تضفى عليه حواء روعة الحس ومتعة اللذة وهو فطرة غريزية فى الإنسان .

وآدم فى نظرالشاعر مظلوم وما فعله حين أكل التفاحة لم يكن خطيئة وإنما كان فطرة أودعها الله فيه فلماذا يعاقبه ؟ وهذه قضية كثر الجدال فيها . والتسليم أفضل برهان .

وفى النشيد الأول " ١٠٠ – ١٠١ "

يخلق الله الكون بأبعاده الثلاث . البعد الزمانى والبعد المكانى والبعد الوجودى المتمثل في البشر وغيرهم من بقية الكائنات

خلق الله الزمان والبرايا والمكان
لفظة من شفه الله تعالى كن فكان
يرث الكون ومافى الكوْن من إنس وجان

(١) رياض المعلوف : زورق الغياب ص ٩٩ .

وفى بؤرة الوجود يقف آدم متمتعا بكل مافيه . لكنه يشعر بالحرمان لأن السر غائب عنه ، ومع حيرته وتشوقه للمعرفة . تخلق من ضلعه " ليليت " فيشعر بالأمان معها .

لـــم يخشيـــا الأقـــدار والمـــوت والنقمـــة
ودون مـــا أكـــدار تقاسمـــا اللقمـــة

وفى النشيد الثانى " ١٠٢ - ١٠٣ "

مإن يهنأ آدم حتى يحوم الشقاء حواليه . ويكتشف أن ليليت لاتحبه ويبين الشاعر طبيعتها المتحولة والتى انعكست آثارها على نفسية آدم . فهى متقنة الدهاء وتصلى آدم العداء ، تسىء به الظن لاشك أن هذه الصفات تغلب على طبيعة النساء فى بعض الأحيان .

وما يملك آدم شيئا إلا أن يستصرخ السماء ويشكو لها حزنه

وســـار فـــى العـــراء كمـــرتـــد ردنـــه
فهـــام فـــى الفضـــاء لـــم يعـــرف الهـدنـــه
تكـــره النســـاء وفـــارق الجنـــه

وفى النشيد الثالث ١٠٥ - ١٠٦ :

تدخل امرأة أخرى فى حياة آدم وهى فى هذه الظروف التى مر بها آدم كما تقول الأسطورة التى استمد منها " رياض المعلوف " وحيه . ضرورة مؤكدة تحبذ وجودها طبيعة الرجل التى تدفع بنفسها فى ساحة الانتقام من حواء ، وليس هناك انتقام من المرأة أبشع من الزواج بغيرها أو حب غيرها . ساعتها تشعر المرأة كما يوضح علم النفس بفقد الثقة والفشل فى السيطرة على قلب الرجل مما يدمى إحساسها ويلون نظرتها للحياة بلون غائم رمادى .

هـــذه حـــواء أغرتهـــا مـــن العـــين بنظـــره
قبلهـــا لـــم يفقـــه الوجـد ولـــم تسكـــره خمـــره
فسبتـــه وسبـــاهـــا سرهـــا هـــذا وســـره

وتحاول ليليت إغراء آدم مره أخرى ليقع فى شراكها . لكنه لم يعد فارغ القلب فإذا بها

تتحول إلى شعلة انتقام .

فـــى صـــــدرها الحســـــد يـــــؤج كالجمـــــره
وجسمـــــه انقـــــد وهاجـــــت النظـــــره
ضمخـــــت الجســـــد ففـــــاح كالـــزهـــره
وحسنهـــــا المعـــــد لـــــه ومـــــا غـــــره

ويبرز " رياض المعلوف " حقيقة هامة تدل على خبرته بعالم المرأة وطبيعتها وهذه الحقيقة تبرز فى شكوى ليليت المتكررة والكثيرة لكل من تقابله " وفقدانها التجلد ، واهتزاز الفكرة عندها . وبخاصة فى أمثال هذه المواقف التى تصدم العواطف وتجرح المشاعر . وتطعن المرأة فى أنوثتها .

وفى النشيد الرابع ١٠٧ – ١٠٨ :

يلتقى آدم بحواء . ويصور الشاعر هذا اللقاء بطريقه العصر أو قل بخبرة العاشق فاللقاء تم خلسة ، وذلك حتى لا تعلم ليليت فتفسد عليه خلوته العذبة ، واختياره لكلمة " خلسة " يوحى بهذا الجو العاطفى الذى يحذر العيون .

ويندفع خيال الشاعر الخصب ليجسد الواقع ويتبادل آدم مع حواء الكأس وهذه صورة حديثة ويتم ذلك عادة بين العروسين أو العاشقين . ولعل هذه الصورة التقطها حس الشاعر الفنى من بيئته التى عايشها بالرغم من أنها لاتتفق مع نبوة آدم وعصمته إذا احتكمنا للموقف الدينى فى هذه القضية .

فالتقـــى آدم مـــع حـــواء فى الجنة خلســه
شـــرب الـكأس التى أعطته كى تشرب كأسه
خلقـــت عالمنـــا هذا وأهل الكون جلســه

والكأس فى علم النفس رمز قديم للمرأة . فإذا وفق الفارس فى الحصول عليه عاد الخصب إلى الأرض . وإذا لم يوفق ظلت جدباء .

وتذكر أساطير القرون الوسطى أن الكأس المقدسة هى التى استخدمها المسيح فى العشاء الأخير ، ويقال إن هذه الكأس قد اختفت حيث لم يكن المكلفون بحراستها أطهارا . ومن ثم يحمل رمز الكأس إشارة إلى المرأة من جهه وإشارة إلى الإيمان من جهة أخرى .

وبغير المرأة أى بغير الحب لايمكن إلا أن تظل الأرض خرابا . (١)

* *

ومن العقل الباطن لآدم تصدر هذه النفثات المحمومة التى يناجى بها ربه فهو ينعم مع حواء نعيما لايشبع جوعه ولا يرضى طموحه . فالسر فى حرمانه من الأكل من الشجرة مايزال غائبا عنه ، وكأن الرحمة والظلم مقترنان ببعضهما فيصدر هذا النداء .

يامبـــــدع الأكـــــوان والنـــــور والظلمـــــه
وحـــــارم الإنســـــان تفاحـــــه الحكمـــــه ؟
تشـــــابه الضـــــدان الظلـــــم والرحمـــــه
تـــــفاحة الحرمـــــان شهيـــــة الطعمـــــه
فالحـــــب كالإيمـــــان مقـــــدس الحرمـــــه

ونلمح الصراع الخفى والإحساس الثورى فى النشيد السابق . وانعكس ذلك على أسلوب الشاعر فكان نداؤه كأنه انذار ، والمقابلة بين الألفاظ . كالنور الظلمة . وتشابههما يعبر عن اختلاط القيم فى نفس الكائن البشرى منذ النشأة الأولى .

وفى النشيد الخامس ١١٠ - ١١١ :

يبدأ الصراع بين ليليت وحواء ، وآدم هو الضحية ليليت تريد أن تهلكه ، وحواء تريد أن تنعم معه ، ومرة أخرى يؤكد " رياض " خبرته بطبيعة المرأة فهى لاترعى عهد الود ، وهى تلبس للغدر جلد أفعى ، وتتسلل إلى آدم فى فردوسه . وتغريه بالأكل من الشجرة ، ويأكل التفاحة المموهة بالخداع . شهية اللون . فواحة العطر ويتعرى آدم من كل شىء ، وتنجح المكيدة وتحدث المواجهة بينه وبين ربه ، ويطرد من الجنة .

(١) أنظر التفسير النفسى للأدب للدكتور عز الدين اسماعيل ص ١١٦ .

وراح فـــى البستـــانْ بجـــوس أدواحـــهْ
وجسمـــه العريـــان يـــريـــد إصـــلاحه
فاتخـــذ الأردان مـــن تينـــة الواحـــه
وواجـــه الرحمـــان لـــم يَقْـــو إفصاحـــه
مزعـــزع الإيمـــان يسيـــر فـــى الســـاحه
صـــاح بـــه الديـــان منعـــتك الراحـــه

والصورة التى صور بها الشاعر آدم . صورة هروب وضياع فالجسم عريان . والإيمان مزعزع ، واثياب من ورق التين . واختيار ورقة التين ترمز إلى الغريزة الجنيسة المتأصلة في الطبيعة البشرية . وعدم القدرة على الكلام أو الدفاع عن النفس كل هذه ملامح لصورة الضياع التى ظهر فيها آدم . إلا أننى أحس بالاضطراب الشعوري فى كلمة " واجه " فهى لاتناسب الموقف الشعرى . فالموقف يوحى بالضياع والذل . وهو ضعف مافى ذلك شك فكيف يواجه آدم ربه وفى المواجهة قوة لاتتناسب مع أبعاد الموقف ، ولايملكها آدم .

وفى النشيد السادس ١١٢ - ١١٣ :

ينتهى فردوس آدم ويهبط إلى الأرض للكد والشقاء والمعاناة والصراع ويتولى " رياض " الدفاع عن آدم يبرئه من الخطيئة ويمثل دفاع الشاعر صوت آدم الخفى المنساب فى أغوار نفسه ، ودفاعه يتمثل فى عدة حائق تدورحول معنى واحد وهو أن كل مانرغبه يجب أن لا نحرم منه ، طالما فى نفوسنا توق إليه ، وإلا فلماذا عوقب آدم على أكله من الشجرة ؟

مـــاقيمـــة الأثمـــارْ إن لـــم تذقهـــا النـــاس
وطلعـــة الأقمـــار إن عافهـــا الجـــلاس

ويثور رياض على من يفرض الحصار على حواسنا التى تتذوق الجمال فتحب وتعشق ويصل به الحد فى ثورته إلى رميه بالكفر مدعى الأقداس ويدعو إلى معانقة الحياة لتاكيد حقيقة الحب الحاضرة . لأن الموت يقضى على كل مافى الحياة من جمال .

ماعـــد فـــى الأشـــرار العاشـــق الحســـاسْ
فـــى الحـــب هـــل من عـــار فـــى الحـــب هـــل مـــن يـــاسْ ؟
أتحـــجـــب الأنظـــار وتخنـــق الأنفـــاسْ ؟
فســـائـــل الحفـــار كـــم زج فـــى الأرمـــاسْ
فـــأنت كالكفـــار يامدعـــى الأقـــداسْ

وفى النشيد السابع ١١٤ – ١١٥ :

يواصل " رياض " دفاعه عن آدم . ولكن الدفاع يتحول إلى التماس العفو عنه والاعتراف بأنه أخطأ ، لكن الله سبحانه فوق الكل يقدر ويعفو .

يا الهـــى آدم أخطـــأ هـــل توليـــه عطفكْ
أنـــت فـــوق النـــاس هل تثنى عن المجرم طرفكْ
مـــذنب يطـــلب عفـــوا فأمنح المذنب عفـوكْ

والموقف الشعرى هنا موقف تضرع وطلب . وليس اعتراضا وتمردا ولذلك هدأ النفس الثائر . ورأينا النداء المستجدى فى قوله ياإلهى والتصريح بالذنب فى قوله " أخطأ " وقد يكون الاقرار من حيثيات العفو .

والاستفهام هنا فيه تذلل وخضوع واعتراف بمشيئة الله وقدرته ولكني أشعر أن كلمة " مجرم " نابية عن الجو العام ثقيلة الوقع على السمع .

ويكشف رياض عن نفسية آدم هذه اللحظة ويصورها نفسا يائسه محطمة وتكاد تصل إلى درجة اللا مبالاة ، واغتنام الفرص الآتيه والغياب عن الماضى ، والتلاشى فى الحاضر ، وتجاهل المستقبل ، فكل القيم هباء والكأس هى الواقع الهارب من ساحة المواجهة ، والموت هو الأمل الأقصى الذى يتجاهله الجميع .

مـــاتنفـــع الأيـــات مـــاتنفـــع السمعـــة
والنـــاس كالحيـــات باللـــؤم واللسعـــه
تعـــد فـــى الأمـــوات لـــو كـــنت فـــى الرفعـــه
ياشاكـــى اللـــوعـــات وطـــالـــب الشفعـــه
أتطلـــب الأفـــلات مـــن هـــذه الوقعـــه
تســـاوت الضحكـــات فـــى العيـــش والدمعـــه
مـــن عـــاش حتمـــامـــات فخـــفف اللـــوعـــه

والصوت الثانى من هذا النشيد المتمثل فى الأبيات السابقة على الرغم من ضعف تعابيره وقربها من العامية الشائعة . فكلمات " اللسعة ، السمعة ، الوقعة ، العيش كلها كلمات

دارجة ولكن الأبيات فى مجملها تشتمل على مضمون فلسفى ربما تردد قبل ذلك ولكن ليس بهذه البساطة المؤثرة أليست فلسفة المعرى تتلخص فى هذا البيت ؟

تســـــاوت الضحكـــــات فـــــى العيـــــش والدمعـــــه

وهل هناك أجدى فى العزاء . وعدم التعلق المميت بكوارث الحياة وأفراحها من هذا المعنى الشائع الذى صاغه الشاعر فى سرعة مذهلة .

مـــن عـــــاش حتمامـــــات فخـــفف اللوعـــــــــه

وفيه أصداء لفلسفة الخيام التى شاعت وأصبحت ظاهرة عامة فى بعض المجتمعات ويصوغ الشاعر هذه الفلسفة كعادته صياغة مباشرة بسيطة .

فســـــاعة اللـــــــذات تـــــادرة الرجعـــــــه

وفى النشيد الثامن " ١١٧ – ١١٨ "

يرتد الشاعر مرة أخرى إلى محاولة تبرئة موقف آدم فيقول :

ايـــه ربـــى : أبدعـــت يمنـــاك هاتيك البدع
نـــال منهـــا آدم ماكـــان عنـــه ممتنع
عبثـــا تمنعـــه الاثمـــار أثمار المتع

وكلمة " عبثا " لاتتناسب مع مخاطبة الله سبحانه ، والموقف النفسى لايسمح بها لأن الدفاع يحاول استمالة قلب القاضى إلى جانب المتهم بكل مايملك من وسائل تأثيرية . ومثل اللفظ السابق فيه اتهام لمن فى يده البراءة والإدانة . والحقيقة أن الله . لم يخلق شيئا عبثا إطلاقا .. والعقيدة السليمة تؤمن أن كل شىء وجد لحكمة عميقة يعلم الله سرها وفحواها .

وبرغم هذا يتوب الله على آدم استجابة لندائه الداخلى الصادق ، الذى ناجى به ربه .

وتقمص الشاعر روح آدم الطهور الصافيه . وعبر عما يجول بداخل آدم من شغف بالتوبة .

فاستغفر الرحمان لعله يرحم
إن طلب العرفان ماخلقه أجرم

ولاينسى الشاعر عقيدته المسيحية فى اعتقادها بأننا " أبناء آدم " نكفر عن خطيئته الأولى وما كان صلب المسيح إلا تكفيراً عن هذه الخطيئة . وهذا المعتقد لاتقره عقيدة الإسلام . قال الخالق جل شأنه " وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم " .

يقول الشاعر:

ونحن حتى الآن من أجله نظلم
وكان فى الحرمان من قبل كالمعدم
يسير كالعميان لسانه أبكم
ماقيمة الإنسان إن كان لايفهم ؟

ولا أدرى مفهوم الظلم الذى يقصده الشاعر . ومن أدراه بالحقيقة حتى يحكم بالظلم عليها ؟ لذلك لاستسيغ مضمون البيت الأول . وكلمة " نظلم " لاقيمه لها فى مخاطبة الله .

وفى النشيد التاسع " ١١٩ - ١٢٠ "

تعود الفرحة لآدم بعد أن غفر الله له خطيئته وتعود له حواء .. وليهنأ بالحب . ويصور " رياض المعلوف " اللقاء بين آدم وحواء بعد هذا الصراع الطويل والخروج من الجنة ، والعودة إليها كما تخيل ، ومن المحتمل أنه قصد بالفردوس كوكب الأرض الذى هبط فيه آدم من فردوسه الأول . واللقاء فى هذه المرة - كما يصفه الشاعر وصفا دقيقا - وهو لديه قدرة بارعة على وصف المواقف وتصوير الشخصيات حتى لتحسها مرئية مجسدة أمامك . ويعنى برسم أبعاد هذه الشخصيات ، ورصد حركاتها وتفسير خلجاتها - يختلف عن اللقاء الأول . فهنا يلتقيان علنا .. وهناك خلسة وهنا يسكران من خمر الشفاة ورحيق القبل ولا يكتفيان بتبادل الكأسين كما حدث هناك وهنا تتعدد الجلسات وتسترجع رؤى الحب وذكرياته ، وهناك جلسة واحدة ولكن الشاعر فى النهاية يعثر على سر الشقاء الإنسانى .

فآدم برغم مافيه من نعيم مكبل بالقيود . . يتجول داخل الأسوار ، يضحك خلف القضبان . ويبرز الشاعر " مأساة الإنسان الواقع بين عالمين متناقضين النار والنور فى عينيه الكأس والدعاء على شفتيه ، الخير والشر فى نفسه ، هو فى الجنة ولا يملك مفتاحها ، وهو

بذلك يقر بالثنائية التى عذبت الإنسان كثيراً ويلتقى مع أبى ماضى فى حكايته الأزلية " ومع نعميه فى " حبل التمنى " و " العراك " و " يابحر " ومع جبران فى قصة " الشيطان " و " المواكب " .

وبذلك يعلن عن الصراع الدائر فى نفس الإنسان منذ البدء .

ويقف " رياض مع فطرة الإنسان وميوله الطبيعية التى تهوى ممارسة ماترغب ولاتعترف بدائرة الأوامر والنواهى بل عليها أن تنهل من كل ماتتوق إليه رغباتها يقول :

أعطيتـــــه الجنـــــه سلبتـــــه المفتـــــاح
فامنـــــح بـــــلا منـــــه يـــــاواهـــــب الأرواح
أهديتـــــه دنـــــه ليشـــــرب الأقـــــداح
وهبتـــــه أذنـــــه ليسمـــــع الصبـــــاح
أعطتيـــــه سنـــــه لينهـــــش التفـــــاح
منحتـــــه جفنـــــة لينظـــــر الألـــــواح
جازيتـــــه اللعنـــــه والكـــــد والأتـــــراح
مـــــاخـــــالف السنـــــة ماكـــــان بالسفـــــاح
حرمتـــــه الهـــــدنه حرمتـــــه الأفـــــراح

* *

والقصة كما أوضحت تشعل فتيل الصراع الأبدى بين الخير والشر ، بين المرغوب والممنوع بين الانحصار داخل الدائرة والقفز خارجها .

وتفجر مأساة الوجدان منذ النشأة الأولى . وتعالج العلاقه بين الرجل والمرأة وما يكتنفها من غموض ، ومايعتريها من تغيرات . وهى قضية قديمة جديدة لانهائية ، والحب الذى تضفى عليه حواء روعة الحس ومتعة اللذة هو الشريان الذى يهب هذه العلاقة الحياة .

وهى بهذا تقف إلى جانب المطولات الشعرية فى أدب المهجر لتؤكد قيمة هذا الأدب فى إثراء الوجدان الإنسانى وتنشيط العقل و مؤازرته للقلب فى كثير من القضايا الكونية والإنسانية

* *

كلمة أخيرة :

وأحب أن أضيف أن شعراء المهجر وأدبائه حينما عالجوا فن الحب لم يكونوا تقليديين فى نظرتهم إليه " العام والخاص " بمعنى أنهم لم يقفوا عند حدود المعانى التى طرقها قبلهم خيال الشعراء فى سيرته الفنية من العصر الجاهلى إلى العصر الحديث . ولم يحصروا أنفسهم فى دائرة الصور الجزئية وإنما هم بدأوا من حيث انتهى غيرهم .

إنهم تساموا فى نظرتهم إلى حد التأمل العميق للمحبوب ، ونأوا بأنفسهم عن القشور والطلاء . وغاصوا إلى الأعماق بحثا عن الجواهر المكنونة . فمثلهم لاتكفيهم الأصداف ولايقنعون بها ، ومن هنا كان الصدق فى فنهم فهم فى تصويرهم لنفسية الحبيبة كثيراً ماكانوا يربطون بينها وبين الطبيعة أو الكون أو الوطن . مثل إيليا أبى ماضى فى " قصيدته " المساء " وتعالى ، والدمعة الخرساء فهو يناجى حبيبته من خلال الطبيعة ويلقى بها فى مشاهد الجمال الكونى . ويستبطن ذاتها ، ويحيل تفكيرها إلى صوت مسموع . ويخاف عليها المساء الذى اتخذه رمزا للفناء . . وشفيق معلوف يشتق حبيبته من الطبيعة ويسخرها لها . فالأزاهر أترابها والزنبق نظيرها فى الحسن ، والعشب وسادتها ، وثغرها والبرعم سواء يسميها " طفلة الحقل".

والقروى أحب الكون كله من خلال حبه لحواء ويراها معنى متجسدا لمظاهر الطبيعة كلها فى قصيدته " عناق الوجود "

ورشيد أيوب وغيره من الشعراء يربط بين حنينه لحبيبته والحنين إلى الوطن وذكريات الصبا " والأهل ، والأتراب . وكل القيم التى ترسبت فى أعماقه وتنمو كل يوم وتشده جذورها إلى منبعه الأول .

قد تكون الظواهر السابقة فى نظرتهم للأشياء سببا فى عدم وضوح نظرتهم للكثيرين الذين تعودوا أن يروا المنظر من أول مره ، ولايجهدون أنفسهم فى كشف الزوايا الخفية والأسرار القابعة وراء الظاهر المكشوف .